التَّوسُّعُ الأوروبيُّ وإبادة السّكَّان الأصليّين بأمريكا خلال القرنين السادس والسَّابع عشر

■ أ. م. د. ريم اليعقوبي[1]
■ أ. م. د. بوبكر أحمد[2]

ملخّص

حـاول هذا البحث، اسـتعادة الذّاكرة التَّاريخيّة التي تجاهلت الخـوض في الجرائم المُرتكبة ضدّ السّـكَّان الأصليّين لـ «أبيـا يالا»، ضمن قراءة متأنّية للأحداث التَّاريخيّة، بهدف «إنصاف» الشّـعوب المغلُوبة وإمَاطة اللّثام وكشف المُلابسات المُرتبطة بالتوسّع الأوروبي (للبرتغاليين والأسبان والإنجليز والفرنسـيين)، بأمريكا الجنوبيّة وأمريكا الشماليّة خلال القرنين 16م و17م، ونفض الغبار عن أشكال العنف، والجرائم المُرتكبة وبشاعة ما اقترفوه، والذي يُعتبر إجرامًا منظّمًا وممنهجًا ضدّ الإنسانيّة، رغم مُحاولات محوِها وإنكارها من طرف بعض الأوسـاط الاستعماريّة، ودحض الأفكار المتداولة حول أنّ مـا حصـل إنّما هو حدث طبيعي زمن الحروب، ولا يرتقي إلى مسـتوى الإبـادة الجماعيّة، وإنّما كان دفاعًا عن النّفس. لقد سـعت هذه الدّراسـة، إلى إثبات دمويّة وعنصريّة الممارسـات التي أدّت إلى إبادة الإنسـان والمـكان، فكانت الإبادة إبادات، إبادة الأعراق الأصليّـة، وتدنيس الأرض، وفتك بالسّكَّان، وتهميش الإرث الثقافي والحضاري لهذه الأمة، ومحوِه من الذّاكرة المحليّة والإنسانيّة.

الكلمات المفتاحية: التوسّع الأوروبيّ- أبيا يالا- السّكَّان الأصليون- إبادة جماعية- فظاعة ووحشيّة- انهيار ديمغرافي- محو ثقافي.

---

1 - باحثةٌ في التاريخ الحديث، وتاريخ النوع الإجتماعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-جامعة تونس.
2 - باحثٌ في التاريخ المُعاصر، جامعة تونس.

المقدِّمة

تطرحُ دراسةُ التوسُّع الأوروبي بأمريكا أو بـ «أبْيَا يَالاَ»[1] (Juncosa, F. 1987, p.39) خلال القرنين 16م و17م، وما ترتَّب عليهِ من إبادةٍ جماعيّة للسكان الأصليّين، وكذلك الكثير من الصّعوبات التي تتَّصلُ بالكشف عن الجانب المُظلم من هذا التَّاريخ، المُتميّز بارتكاب مُمارسات لاإنسانيَّة ضدَّ «الهنود الحُمر»[2]. تطرح الكثير من الاسئلة وعلامات الاستفهام

إضافة إلى ذلك، نُدرة الدِّراسات التَّاريخيَّة التي تطرَّقت إلى هذا الموضوع، التي حتَّى وإن وُجدت -خاصَّة الغربية منها-، فإنَّها غير مُحايدة وغير موضوعية، أو أنَّها لا تُوليه القدر الذي يستحقُّه من الاهتمام. إذ أنَّ أغلبها يُحيل إلى وجود إبادة جماعيَّة للسكَّان الأصليّين بالأمريكيّتين، دون أن تُقدِّم تحليلاً شاملاً ومُعمّقًا لأساليب وطرق الإبادة. في الوقت الذي تُلحُّ فيه هذه الدراسات على كون التَّاريخ الإسلامي هو تاريخُ سفكِ دماءٍ وتنكيلٍ وتهجيرٍ، مع وصف هذه الممارسات بالبربرية، وقد ألحقت بالمُسلمين ظلمًا تاريخيًّا، استند إلى مقولات الإدانة، ووصم الفتوحات بأنَّها حملات للتَّصفية العرقيَّة للشُّعوب الأصليّة، والتي ترتقي إلى جرائم ضدَّ الإنسانيّة.

يعكسُ تستُّرُ عددٍ من الدِّراسات الغربيَّة على الجرائم المُرتكبة ضدَّ السّكَّان الأصليّين «بأمريكا»، والتنصُّل من المسؤوليّة التَّاريخيّة، -بقدر ما يُبيح هذه المُمارسات ويُبرِّرها إلى حدٍّ

---

1 - «أبيا يالا» (Abya-Yala) هو الإسم الأصلي الذي أطلقته قبيلة كونا في «بَنَمَا»(Panama) وشمال كولومبيا على القارة الأمريكيّة بأكملها، وهو يعني الأرض في مرحلة النّضج الكامل، والذي اعتمده جزءٌ كبيرٌ من الشّعوب الأولى في الأمريكيّتين لتسمية الأراضي التابعة لهم.

2 - إنَّ اعتمادَ تسمية «الهنود الحُمر»، يُعدُّ مُغالطةً اقترفها كريستوف كولومبس، وقد تمَّ تبنِّيها على أنَّها حقيقةٌ تاريخيّةٌ.

كبير- التأثُّر بالتّقاليد الاستعماريّة، وبنظريّة المركزيّة الأوروبيّة الغربيّة، المُروِّجة لمُحوريّة الإنسان الأوروبيِّ وحضارته في الكون، كما تُشَرعِنُ التوسُّـعَ والهيمنةَ على بقيّة الشّعوب والحضارات الأخرى، والمحو المُمنهج لتاريخ السّكّان الأصليّين من الذّاكرة الجماعيّة محليًّا وعالميًّا.

لذا سـنحاولُ في هـذا البحث، نفضَ الغبـار عن الذّاكـرة التّاريخيّة التـي تجاهلت جرائم الأوروبيين في حقّ السّكّان الأصليّين، والذي يُعدُّ إجرامًا مُنظَّمًا ومُمنهجاً ضدَّ الإنسانيَّة، وذلك بالاعتماد على جملة من المصادر[1] والمراجع[2].

وقد كنّا نطمحُ الاعتماد على الأرشيف والكتابات التي وثّقت التّاريخ الشّفوي، لكنّ صعوبة الاطّـلاع عليها حال دون ذلك[3]. وكذلك تحديد الظروف الاقتصادية والسياسـيّة والسـياقات العلميّـة والتّقنيّـة والثّقافيّة التي دفعـت الأوروبيين إلى اجتياح «العـالم الجديد»[4] في مرحلة أولى. وسـنتطرق في مرحلة ثانية إلى التوسُّـع الأوروبيّ باختصار، ثمّ سنتناول بالتّحليل طرقَ وأشكالَ الإبادة، وبيان فظاعتها ووحشيتها. أمَّا المرحلة الثالثة من البحث، فتتعلقُ بدراسة النّتائج الدّيمغرافيّة والاجتماعيّة المُترتّبة عن هذه المُمارسات.

---

1 - يُعدُّ كتاب الإسباني بارتولومي دي لاكاساس (Bartolomé de Las Casas) عن «مذابح الهنود الحمر» من أهمّ ما كُتب في هذا الموضوع، إذ أطنب المُؤلّفُ الذي عاصر الأحداث في وصف وحشيّة المُمارسات والجرائم والمجازر المُرتكبَة ضدّ السـكّان الأصليّين خـلال القرن 16م. في المقابل، فإنَّ كتابَ جـاك كارتييه (Jacques Cartier) حول الرّحلات التي قام بها في «الأراضي الجديدة» بكندا، تطرَّق فيه إلى دراسة عادات وتقاليد وطقوس ولغة القبائل المحليّة خلال رحلاته الثّلاثة، دون ذكر الجرائم المُرتكبة ضدّ هذه الشّعوب خلال القرن 16م.

2 - أشار الأنثروبولوجي الأمريكي روسال ثورنتون (Russell Thornton) في مؤلَّفِه «الهولوكوست وبقاء الهنود الأمريكيين: تاريخ السـكان منذ عام 1492»، وكذلك المؤرّخ الأمريكي ديفيد سـتانارد (David Stannard) في مؤلّفه «المحرقة الأمريكيّة: كريستوفر كولومبس وغزو العالم الجديد»، إلى فظاعة الممارسات المُرتكبة في حقّ «الهنود»، وذلك في إطار دراسة الإبادة الجماعيّة للسكان الأصليّين بأمريكا.

3 - إنَّ الوثائقَ الأرشـيفيّة والشّفويّة، تتطلّبُ الحضورَ إلى عين المكان للاطّلاع عليها، إضافة إلى أنّها غير مُتاحة على المواقع الالكترونيّة.

4 - العالم الجديد (Le nouveau Monde): هي تسمية شائعة في عدد من المراجع للقارة الأمريكيّة، لكن يحمل مدلولها أنّها أراضي بِكر خالية من السكّان، ويجوز للأوروبيّين بكُلِّ مشروعيّة تعميرها وإرساء نظمهم السياسيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والثقافيّة فيها.

1 - ظروف التوسُّع الأوروبيّ في الفترة الحديثة

لا يمكنُ فهمُ أشكال الإبادة للسكّان الأصليّين «لأمريكا»، دون التطرُّق إلى الظّروف التي مَهَّدت لتوسُّع الدّول الأوروبية وبسط نفوذها على مجالات جغرافيّة جديدة من العالم في نهاية القرن 14م وبداية القرن 15م. وقد ساهمت جملةٌ من الدوافع الاقتصاديّة والسياسيّة والدينيّة في تنظيم عدّة رحلات «استكشافية» توسُّعيّة انخرطَ فيها كُلٌّ من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا. كما ساعدت جملةٌ من العوامل التّقنيّة والعلميّة والثقافيّة على تحقيقها.

1 - الدَّوافع الاقتصادية

مثَّلتِ الدّوافعُ الاقتصاديّةُ أساسَ «الاكتشافات»[1] (Lebrun, F. 1999, p.29) أو الحركات التوسعيّة الأوروبيّة «بأمريكا»، للهيمنة على المسالك التّقليديّة للتّجارة العالميّة من ناحية، والقضاء على وساطة واحتكار التجّار العرب وتُجّار المُدن الإيطاليّة (جنوة والبندقيّة) لهذا النّشاط وتجاوزهم من ناحية ثانية.

لقد امتدَّت الإمبراطوريّة الإسلاميّة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وهيمنت اقتصاديًّا على هذا المجال بفضل امتلاكها للذهب ورواج عملتها عالميّاً من القرن 8م إلى بداية القرن 11م. وكانت البضائعُ مُتنوّعةً مثل: العنبر والصّمْغ والجلود والمجوهرات والنّسيج والتُّمور والقمح، لكن أهمّها كان الذّهب والملح والعبيد. (Lebrun, F. 1999, p.29). إذ استقرَّ العربُ على ساحل شرق إفريقيا وصولاً إلى زنجبار وجزر القمر ومدغشقر[2]. وربطت مراكبهم الشرّاعيّة موانئ باكستان (السند) بموانئ عُمان واليمن وموانئ شرق إفريقيا. وقد عمل التجار على ترويج المنتوجات الاستوائية (القهوة والأرز وقصب السكر)، والصينية (المسحوق والورق)، كما كانوا بالإضافة إلى ذلك يتعاطون تجارة الرقيق. وقد بلغ التجَّارُ العرب في نطاق تجارتهم مع المحيط الهندي، سواحل الهند وجنوب شرق آسيا، حيث أنشأوا مراكز تجارية مُهمَّة بساحل مالابار

---

1 - نسوق مصطلح «الاكتشافات الجغرافيّة» المُتداولة في أغلب الدّراسات الأنتروبولوجبّة والإتنولوجيّة والأركيولوجية والتّاريخيّة والحضاريّة والجغرافيّة بكلّ حذرٍ، لأنَّ ذلك يدخلُ في إطار توسُّعٍ وغزو وتدمير واستعمارٍ أوروبيٍّ لحضارة «أبيا يالا».

2 - زنجبار: أرخبيل يقعُ على ساحل شرق إفريقيا ويخضع لحكم سلاطين مسقط.

في سيرنديب (سـيلان/سريلانكا)، وامتدّت رحلاتهم إلى سوندا (الجزر الإندونيسيّة والفلبّين) والصين، حيث قاموا بجلب المنتوجات الثمينة مثل: الحرير والتوابل.

وفي المقابل سـيطر الإيطاليون على التّجارة البحريّة في البحر المتوسّـط، الذي ظلَّ محورَ الثقل الاقتصادي العالمي قبل الاكتشـافات الكبرى. فقد سـخَّرَ تجار جنوة والبندقيّة الإمكانات الأساسيّة لازدهار تجارة التّوابل والمنسوجات ورواجها على نطاق واسع انطلاقاً من البحر، بعد التخلّي تدريجيًّا عن الطُّرق البريَّة التي تربطُ أوروبا وآسيا، خاصَّة بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية لصالح الإمبراطوريّة العثمانيّة. لذلك أصبحَ البحثُ عن مسالك جديدة للوصول إلى الهند والقضاء على وساطة العرب من بين الدوافع غير المباشرة للحركة التوسُّـعية الأوروبيّة، خصوصاً مع نُدرة التوابل والذهب والمعادن الثمينة (Thomazi, A. 1961, p.65). فمنذ أواسط القرن 15م، عرف الاقتصاد الأوروبي انتعاشةً كبيرةً بعد فترة الانكماش الطويلة التي مرَّ بها، بسبب تَحسُّنِ الوضع الصحي، وارتفاع عدد السّكَّان، وتنامي الطّلب على مواد جنوب شرق آسيا والهند خاصّة التوابل والحرير والقطن والسكر وغيرها، المُعتمدة في إعداد الطّعام وحفظ اللّحوم وإعداد الأدوية. (Lebrun, F. 1999, p.29).

2 - الدّوافع السياسيّة والدينية

ارتبطت الحركاتُ التوسُّعيّة الأوروبيّة أيضًا، بأسباب سياسيّة وبحملات صليبية غير مُعلنة. فقد أولى ملوك أوروبّا اهتماماً كبيراً بالرَّحلات «الاستكشافيّة» وعدُّوها دعامةً لبسط نفوذ الدّولة ودعم مكانتها السياسـيّة والاقتصاديّة داخليًّاً وخارجيًّاً. فإلى جانب ما تُوفِّرُهُ من موارد إضافيّة، جديدة كانت أوروبّا في حاجة إليها، فهي تُسـاهم كذلك في توسـيع المجال الجغرافي للدّول بالهيمنة على مناطق جديدة. وقد شَـجَّعَ ملوكُ أوروبّا هذه الرَّحلات رغبةً في التصدِّي للتوسُّع العثماني، خصوصًا بعد سـقوط القسطنطينيّة على يد الأتراك سنة 1453، وذلك لاسترجاع ثقة المسيحيّين من ناحيّة ونشر الدّيانة المسيحيَّة في المناطق الجديدة المُكتشفة من ناحية أخرى. إذ إنَّ مُواجهةَ المسـلمين لقرون طويلة، أدَّى إلى ترسـيخ العقليّة الصّليبيّة لدى سكان شـبه الجزيرة الإيبيريّة (الإسـبان والبرتغاليّون) وكذلك الشّأن بالنّسـبة للفرنسـيِّين والإنجليز. فلا غرابة أن تكونَ هذه الرَّحلاتُ الاستكشـافية التوسُّعيّة امتدادًا للحروب الصَّليبيّة التي اصطبغت من وجهة نظر ملوك أوروبا بمرجعيّة دينيّة للدّفاع عن «القضايا العادلة وحماية اللّه» (Corvisier, A. 1999, p.283).

وفي السّـياق ذاته تعزَّزت أيضًا روح الحملات التبشـيريّة لدى رجال الكنيسة، الذين تسيطر عليهـم فكـرة التّنصير دون اللّجوء إلى العنف، من خلال حملات التّبشـير، ومـن ثمّة يتأكَّدُ أنَّ الرغبةَ في ضمِّ أراضٍ جديدةٍ هو كذلك بهدف نشر «الإيمان الحقيقي»، للحدِّ من انتشار الإسلام (Lebrun, F. 1999, p.29). وتـبرز الصّبغـة الدّينيّة للبعثات «الاستكشـافيّة» في ما أفصح عنه كريستوف كولومبس في مُذكّراته حول رحلته الأولى لسنة 1492: قائلاً: «إنَّ سموّكم، كاثوليكيين ومسـيحيين وأمراء تُحبُّون العقيدةَ المسيحية وتَتُوقون لرؤيتها تتوسَّع، وكأعداء لملَّة مُحمَّد وكلّ الوثنيّين والهراطقة، والذين رأوْا أنَّهُ من المُناسب أن يُرسلوني، إلى الأجزاء المُسمَّاة بالإنديز للنّظر في الطّريقة المُمكِنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المُقدَّسة». (بْرَيَر، 2004، ص 86).

3 - العواملُ التّقنيّة والعلميّة

لقد اسـتفادَ الأوروبيّون مـن المعـارف والتّقنيـات (Corvisier, A. 1999, p.283) العلميّة والخـبرات (Lebrun, F. 1999, p.28) الحاصلة في الـشرق والصّين وخاصَّة لدى العرب، في تطوير تقنيات الملاحة البحريّة وتدعيمها وتحسينها واستعمالها. ومن مظاهر هذا التطوُّر، تصميم بناء سفن جديدة مثل سفينة الكارافيل (Lebrun, F. 1999, p.28)، إضافة إلى إدخال تحسينات على البوصلة والإسـطرلاب وهما: من أدوات الملاحة التقليديَّة، ممَّا أتاحَ معرفةَ مواقع السُّـفن ومسـاراتها في البحار، ورسـم الخرائط والمُرشـدات البحريّة، وتحديد موقـع القارَّات ومعرفة الطّرقات المؤدِّية إلى السَّواحل بطريقةٍ أفضل (Thomazi, A.1947).

وكان لرواج نظريّة كرويّة الأرض التي دعا إليها بطليموس منذ القرن الثاني قبل الميلاد، أهميّةٌ كُـبرى في تطوير تمثيلٍ دقيقٍ للأرض الذي أثبت إمكانيّة تجاوز إفريقيا والوصول إلى آسـيا من الغرب(Lebrun, F. 1999, p.28).

4 - العواملُ الثقافيةُ: الطُّموحُ وحبُّ المُغامرة

لا شـكَّ أنَّ الفضـولَ وحُبَّ المُغامرة كانَا من بين الأسـباب التي دفعت بعـضَ ملوك أوروبّا والمستكشفين إلى خوض هذه المغامرة. فمنذ القرن 13م، اطّلع الأوروبيون على حضارات بلدان الشرق الأقصى بفضل «كتاب العجائب» الذي كتبهُ تاجرُ البندقيّة ماركو بولو سنة 1298، الذي زارَ

الصينَ والهند والهند الصينيّة (من 1271 إلى 1291)، وأكَّدَ أنَّ هذه البلدان غنيّةٌ بالتوابل والذّهب والألماس والأحجار الكريمة. وقد ساهم هذا المُؤَلَّفُ في اتّساع خيال وفضول بعض البحَّارة لاكتشاف خيرات وكنوز هذه المناطق النّائية، وأغرى العديدَ منهم إلى الانطلاق في مغامرة نحو المجهول. وهكذا، فقد تأثّر الأوروبيون بالقصص الأسطوريّة التي انتشرت على مدى قرون حول هذه البلدان الشرقيّة المجهولة الغنيّة بالثروات. (Lebrun, F. 1999, p.30).

مـن ناحية أخرى، تمكَّنَ الأوروبيون بفضل اطّلاعهم، من خلال ترجمات العرب للعديد من المؤلّفات اليونانيّة القديمة على بعض النّظريّات وتبنّيها ونشرها، ومن أهمّها نظريّة كرويّة الأرض التي دعا إليها بطليموس منذ القرن 2 ق. م.

II. التوسُّعُ الأوروبيُّ في "أمريكا" وأشكال التّنكيل من القرن 15م إلى القرن 17م

اتَّخذَ اتّصالُ الأوروبيّين بالسّكّان الأصليّين منذ نهاية القرن 15م طابعًا توسُّعيًّا استيطانياً، على حساب قبائل الإنكا والمايا والأزتاك المُستقرِّين بأمريكا اللاتينيّة، وقبائل الإسكيمود-أليوت Esquimaude-aléoute (Inuite) وقبائل ألجونكويان Algonquinne، وقبائل إيروكويان Iroquienne (El Kenz, D. 2005). بأمريكا الشّماليّة، لكن، سنحاولُ قبلَ الخوض في دراسة أشكال وطرق التنكيل والوحشيّة، تقديم نبذة عن التوغُّل الإسباني والبرتغالي والفرنسي والإنجليزي دون التعمُّق في المُواجهات الاستعماريَّة وردود فعل السّكّان الأصليّين، وسنقتصرُ على دراسة مثالين إثنيْن: التوسُّع الإسباني الذي يُعدُّ أولَ توغُّلٍ «استطلاعي» بأراضي أبيا يالا، والتوسُّع الفرنسي الذي راوح بين المبادلات الاقتصادية والعنف مع السّكّان المحليّين. فالأمر لا يتعلق بإعادة بناء تاريخيٍّ للأحداث في الأمريكيّتين خلال العصر الحديث، بل محاولة تقديم نظرة عامّة حول العلاقات التي اتّسمت غالبًا بالصِّراع والمواجهة بسبب انتهاج العناصر الوافدة سياسة أساسها القّوة والعنف لإخضاع العناصر المحليَّة والهيمنة عليها.

1 - التوسُّعُ الأوروبيُّ في «أمريكا»

لقد حدَّدَ استعمارُ الدول الأوروبية «لأمريكا» طبيعة علاقة الهيمنة على السّكّان الأصليّين، وفقًا لمنظور التفوُّق العرقي- الحضاري، إذ كان الأوروبيّون يعدُّون أنفسهم رمزَ التقدّم والإنسانية،

في حين كان يُنظرُ إلى السّـكّان المحلّيين على أنّهم برابرة ومُتوحّشون (Leforestier, C. 2012, pp.37-38)، لذلك برَّروا قدومهم وتوسُّعهم برغبة نشر الحضارة الأوروبيّة والدّيانة المسيحيّة في هذه المناطق، مُتجاهلين بذلك حضارة وديانة القبائل الأولى في هذه المنطقة.

بدأت الحملاتُ الاستعماريَّةُ الأوروبيَّة لأمريكا مع الإسبان الغُزاة، والتي ضمَّت مُختلفَ الفئات الاجتماعيّة، بما في ذلك الجنود السابقين ورجال الدّين (Corvisier, A. 1999, p.283). وبدأت أولى «الاكتشافات» مع غزو كريستوف كولومبس لهايتي في 28 أكتوبر 1492، التي أطلق عليها اسم هيسبانيولا، مُعتقدًا أنّه وصل إلى الهند، وسمَّى سكانهم خطأً بـ«الهنود الحمر». وأعقبتها مجموعةٌ من الحملات الاستيطانيّة مع رحلته الثّانية سنة 1493-1496م، وتواصلت مع بقيّة رحلاته من سنة 1498-1500 و1502-1504م، التي كانت بداية تركيز المستوطنات الإسبانيَّة والتقدُّم في عمق البلاد (بْرَيَر، 2004، ص81). وقد تمكَّنَ «الكونـكيـسـتـادور» (Conquistadores) منذ مُنتصف القرن 16م وبداية القرن 17م من إحكام السيطرة ومزيدٍ من عمليات التغلغل لاستعمار الجزر والمقاطعات في بحر الكاريبي وفي أمريكا الوسطى والجنوبيّة[1]. لقد نجحَ الإسبانُ في إرساء قواعد الاستغلال الاستعماري بكُلِّ وحشيّةٍ، مُستفيدين من دعائم قوّتهم العسكريّة المُستندة إلى الخيول والمدفعيّة، لإخضاع السّكّان والاستحواذ على أراضي شاسعة بأمريكا اللاتينيّة وتحويلها إلى مجالات جديدة للاستيطان البشري والاسـتغلال الاقتصادي، ممَّا فتحَ المجالَ لتدفُّق المُستوطنين، بدافع البحث عن الثّروة والمكانة الاجتماعيّة والسّـلطة. (بْرَيَر، 2004، ص83).

انطلقـت الحملاتُ التوسُّـعيّة للبرتغاليين بداية من سـنة 1500م، وتمكَّنـوا من الوصول إلى أمريكا اللاتينيّة، وتحديدًا إلى السّاحل الشّرقي أو ما يُعرف اليوم بالبرازيل على يد بيدرو ألفاريز كبرال (Pedro Alvares Cabral) (بْرَيَر، 2004، ص 81). وتمَّت السـيطرة عليها كُليّاً سنة 1540 (Boqueho,V. 2020)، مُتّبعًا السّياسة التوسعيّة الوحشية نفسها تجاه السّكّان الأصليين.

أمَّا بالجزء الشّمالي من «أمريكا»، فقد سـعت كُلٌّ من الإمبراطورية الفرنسيّة والإنجليزيّة إلى

1 - تضمُّ جزيرةُ سـان خوان، جزيرة جامايكا، جزيرة كوبا، الجانب المُسمَّى فلوريدا، مقاطعة نيكاراغوا، إسبانيا الجديدة، مقاطعة غواتيمالا، مملكة يوكاتان، مقاطعة سانتا مارتا، مقاطعة قرطاجنّة، ساحل اللؤلؤ وباريا، جزيرة ترينيداد، الساحل من باريا إلى خليج فنزويلا، من نهر يوبا باري، من ريو دي لا بلاتا، من المقاطعات الكبيرة في بيرو، من مملكة غرناطة الجديدة؛ وهي الأسماء التي استخدمها دي لاس كاساس في كتابه.

شنِّ حملات توسُّــع، أفضت إلى إخضاع قبائل الإيروكوا والهورون والسّيوكس. ولأنَّ الهاجسُ الأســاسي لتنظيم هذه الحملات، كان هو الرّغبة في الهيمنة والاســتغلال الاقتصادي، فإنَّ ذلك طرحَ العديدَ من الصُّعوبات والعراقيل أمام الغزاة الأوروبيين، نظرًا إلى تشــتُّت وانتشــار القبائل على مساحات شاسعة (Corvisier, A. 1999, p.281)، وهو ما دفع كُلًّ من الفرنسيين والإنجليز خلال القرن 16م وبداية القرن 17م إلى وضع استراتيجيَّات الغزو والهيمنة بهذه المناطق، وانتهاج سياسة مُغايرة تراوح بين المرونة والقوة، مقارنة بحملات الإسبان والبرتغاليين بأمريكا اللاتينيّة.

انطلقــت حركةُ التوسُّــع الفرنسي منذ نهاية القــرن 15م وبداية القــرن 16م (1534-1608) مع حملات جون كابوت، الذي قام برحلتين انطلاقاً من بريســتول لاســتطلاع ســواحل كندا. كما تمكَّنَ جون فيرازان (1485-1528) في عهد فرانسوا الأوّل من الوصول إلى كندا سنة 1524، التي أطلق عليها اسم «نوفا قاليا». وفي سنة 1534 تمكَّنَ جاك كارتييه من الاستيلاء على هذه الأراضي باسم ملك فرنسا[1]. وبلغ في السّنة التالية قرية "ستاداكوني" ثمَّ قرية "هوشيلاغا" اللّتان أصبحَتَا تُعرفان لاحقًا مع بداية القرن 17م باسم كندا ومونريال. لكن رغم ذلك، فإنَّ جهودَ فرنسا المُتتالية لتوســيع مجالها الاســتعماري آلت في النّهاية إلى الفشــل في "كاب روج" (Cap Rouge) سنة 1543 (Temdaoui, J.C., 2017, p.3). وعــلى امتــداد الحملات الثّلاث (1534 و1535-1536 و1541-1542) (Turgeon, L. 2019, p.8) التي قام بها جاك كارتييه للتوسُّع بكندا، والتي تلتها حركات استيطانيّة أخرى أفضت إلى الاستحواذ على أراضي جزيرة «سابل» وجزيرة «سانت كروا» وتأسيس ميناء «بورت روايال» (El Kenz, D. 2006).

أصبحُ الاستعمارُ الفرنسي أكثر عدوانيّة مع وصول صموئيل دي شامبلان إلى «سانت لورنس»، وإنشاء مستوطنة كيبيك على ضفاف النهر سنة 1608، إذ مثّل إنشاءُ هذه المُستعمرة بداية التأسيس الفعلي للاســتعمار الفرنسي وتركيز أُسُســه على حســاب قبيلة ألجونكوين. (Temdaoui, J.C., 2017, p.3). لقد اتّضحت معالمُ اســتراتيجيّة الهيمنة الفرنســيّة بداية من هــذه الفترة، إذ اقترنت بتنظيم الحملات العســكريّة من جهة، وتوقيع المُعاهدات مع السّكّان الأصليين من جهة أخرى،

1 - وقد نصب على هذه الأراضي صليبًا، رسم عليه شعار زهرة الزّنبق، نُقشَ عليه «يعيشُ ملك فرنسا». يرمزُ شعار زهرة الزّنبق (fleurs de Lys) إلى الشرف والانتساب إلى مجموعةٍ أو عائلةٍ حاكمة. ويكون رسمُ زهرة الزنبق ناصعَ البياض، وهو يرمزُ أيضًا إلى شعار الملكية في فرنسا.

إضافة إلى مواصلة البحث عن طريقٍ تجاريٍّ باتّجاه الغرب، اعتقادًا أنّهُ سيؤدّي إلى الصّين والهند. ومنذ سنة 1615، انطلقت أولى الحملات الدّينيّة إلى وادي سانت لوران، وشرّعت لممارسة العنف غير المُعلن باسم الدّين. كما كُلّفَ صموئيل دي شامبلان مُنذ سنة 1627م، بالإشراف على مشروع الاستيطان بناءً على أوامر الوزير ريشيليو، الذي عَمَدَ إلى توطين الفئات المُهمّشة بفرنسا، مثل اللّقطاء والمُجرمين والمحكوم عليهم بالسّجن والنّساء المُومسات أساسًا (Yacoubi, R. 2012, p.588)، الأمرُ الذي يكشف النّوايا المُضمرة لممارسة العنف تجاه السّكّان الأصليين.

أمّا بالنّسبة إلى إنجلترا، فقد انطلقت حملاتها التوسعيّة بأمريكا الشّماليّة بداية من القرن 16م، حيث عرفت ثلاث رحلات: الأولى سنة 1584 بتكليفٍ من إليزابيت ملكة إنجلترا لوالتر رالي (Walter Raleigh)، والرحلة الثانية سنة 1586، والثالثة سنة 1587، لمحاولة تركيز مُستوطنات على السواحل الشماليّة. لكنَّ هذه البدايات كانت مُتعثّرة نظرًا إلى صعوبة التّعامل مع السّكّان الأصليين من قبائل الروانواك (Roanoacs) والكرواتان (Croatoans) والبوهاتان (Powhatans)، (Legrand, O.2013, p.4). وقد بدأت مرحلة الاستقرار الفعلي منذ سنة 1607، على إثر تأسيس مستوطنة جيمستاون، (Jamestown) فرجينيا، اليوم على يد جون سميث « John Smith» (Turgeon, L. 2019, p.8)، ثمَّ تطوَّرت هذه العلاقات لتأخذَ أشكالَ مُبادلات تجاريّة قائمة على تجارة الفراء التي احتكرها التجّار والشركات، مُقابل الالتزام بجلب المُستوطنين لتطوير المُستعمرات، وتأسيس مدن- مُستوطنات مثل: كيبك (1608)، إضافة إلى بعث مراكز تجاريّة وإبرام تحالفاتٍ مع القبائل، في إطار مبادئ الماركنتيليّة، وهي استراتيجيّة فرنسيّة، راوحت بين مُعاملات بسيطة تقومُ على إظهار روح المحبّة والطّيبة للرجل الأبيض المسيحي، واستثمار طيبة السّكّان والتزاوج لبعث الطمأنينة والأمان، وصولاً إلى استعمال الحيل لبسط النفوذ وأخذ الأراضي...إلخ، وكلّ ذلك لم يقع بطريقة سلميّة، بل تمَّ عن طريق توظيف القوة والعنف (Temdaoui, J.C., 2017, p.3)،

كما أنَّ تضاربَ مصالح القوى الاستعماريّة الأوروبيَّة، دفع فرنسا إلى إبرام تحالفات استراتيجيّة مع قبائل الهورون لمواجهة قبائل الأيركواي المُعادية لها والمُتحالفة مع إنجلترا، لذلك كانت ازدواجيّة السّياسة الفرنسية في عقد التّحالفات مع بعض القبائل، وتصفية قبائل أخرى، تهدفُ إلى ضمان مصالحها الاقتصاديّة وتدعيم حضورها العسكري، استنادًا إلى التّفريق بين القبائل، الأمرُ الذي أفرزَ اندلاع حربٍ في سنة 1689، وضعت وجهًا لوجه القوى الاستعماريّة ومن ورائها القبائل الحليفة.

هكـذا تمكّنـت الإمبراطوريّات الاسـتعماريّة الأوروبيّة، عن طريـق الغزو، من توسـيع مناطق نفوذها ومجالاتهـا الحيويّة الاقتصاديّة والسياسـيّة، ووظفت أشـكالاً مُختلفةً من القوّة والعنـف، اتّخذت وتيرةً تصاعديّةً، واختلفت أساليبها من منطقة إلى أخرى. فلم تكن المعاملات والعلاقات مع سكّان «أبيا يالا» على الوتيرة نفسها في الأمريكيّتين، لكنّ النتيجة كانت واحدةً، فظاعةُ ووحشيةُ الإبادة تجاه السّكّان الأصليّين.

2. مظاهرُ التعذيب والتّنكيل والإبادة الجماعيّة تجاه السّكّان الأصليّين: دلالات الفظاعة والوحشيّة

تعـدُّ مظاهـرُ الإبـادة (Kutlu, O., 2021) الجماعيّة للسـكان الأصليّين بأمريـكا، في الفترة الحديثة، من حيث فظاعتها ووحشـيتها، من المواضيع المسـكوت عنها إلى يومنا هذا، فأغلبُ الدّراسـات التّاريخيّة تتناولُ هذه المسـألة باقتضاب دون التعمُّق في الممارسـات اللاإنسـانيّة المُرتكبة، وحتّى إن تمَّ التطرّق إليها في كتابات الإسبان والبرتغاليّين والفرنسيين والإنجليز الذين عاصروا الأحداث، فتبقى نادرة،وتتغاضى عن موضوع أشـكال العنف. في المقابل، يعدُّ كتاب «تاريخ الهنود» لرجل الدّين «دي لاس كازاس» من الكتب النّادرة، إذ عاصر الأحداثَ عن قرب ونقلها كما عاينها خلال القرن 16م، فهو المصدرُ الوحيدُ الذي ذكر تصفية عشرات ملايين البشر عـلى يد الأوروبيّين، واصفًا أعمالهم للدّوق «فيليب» أمير إسـبانيا بـ «الـشرور والآثام والدّمار والخـراب لهـذه الممالك الكبـيرة» (De Las Casas, B. 1983, p.46). وقد فضحَ مُمارسـات العنف وكشف عن بربريّة وهمجيّة الغزاة الذين كرّسوا نيَّة القتل والنَّهب والسَّلب، بسابق إضمارٍ وترصُّد، مُجسِّدين المقولة المنسوبة إلى فيليب شـيريدان: «الهندي الطيب الوحيد هو الهنديّ الميّـتً». (Garrait-Bourrier, A. 2015, p.122)، مقُولةٌ تُلخّصُ عقيدةَ المُسـتعمر الأوروبيِّ التي عملَ على ترسيخها منذ بداية غزوه «لأمريكا»، وهي تكشف نظرة الاستعلاء تُجاه الشعوب المُسـتقرّة هناك، والتي نُعتت بالوحشيَّة والبربريَّة، مُناقضين تمامًا الوصف الذي قدَّمه دي لاس كازاس، حيث يعدُّهم بسيطين وطيّبين للغاية، يعيشون أساساً على الصّيد والزراعة، مُؤكّدًا أنّهم «مُطيعون ومُخلصُون، وهم مُسالمون لأنّهم بلا ضغينة ولا كراهيّة ولا رغبة لهم في الانتقام» (De Las Casas, B. 1983, p.49)، بل هم (شعب) سهلُ الانقياد» (المصدر نفسه، ص74).

يحيلنا تضاربُ الآراء والمواقف حول مشروعيّة القتل والتنكيل أو إدانة ما تعرَّض له سُكَّانُ «أبيا يالا» الأوائل منذ نهاية القرن 15م وصولاً إلى القرن 17م، إلى دراسة الإبادة من منظورٍ تاريخيٍّ،

وهي تشـمل ثلاثة مسـتويات: الإبادة الجماعيّة (Génocide)، والإبادة العرقيّة (Ethnocide)، والإبادة البيئيّة (Ecocide). وقد تمَّ اعتـمادُ مصطلح الإبادة الجماعيّة لأوّل مرَّة من قبل رافائيل ليمكين (Raphael Lemkin) سنة 1944 ويشيرُ إلى فكرة المذبحة (Bellier, I.2021, p.2). أمَّا مفهومُ الإبادة العرقيّة فقد ظهر سـنة 1960 للدّلالـة على القضاء على الجذور العرقيّة لمجموعة بشريّـة، بل يمكـن أن تُحيل أيضًا إلى إبادة ثقافيّة ناجمة عن محـو وطمس ثقافة ولغة مجموعة بشريّة، دون أن يهدف إلى القضاء عليها جسديّا.

ويشـيرُ مفهومُ الإبادة البيئيّة الذي ظهر في بداية الستينيات إلى تدمير النّظام البيئي (Bellier, I. 2021, p.2). في هذا السـياق، فإنَّ الاسـتيطان الأوروبي لم يتمّ بطرق سلميّة، بل كان توسُّعًا قائمًا على توظيف القوّة وتكريس الهيمنة بمختلف أشكالها، إذ مثّلت سياسةُ التطهير العرقي في المُستعمرات الأوروبيّة شكلاً من أشكال المحو والقتل طويل المدى، وهي سياسةٌ لا تقلُّ فظاعةً عن القتل الماديّ أو الاغتراب والاستلاب الثقافي (Clastres, p.2002, Vol. 8, pp. 888- 890). وفي هـذا الإطار يُعدُّ فريديريـك دورال (Frédéric Dorel) أهمَّ مـن أرَّخ للمذابح التي عرفتها الإنسانيّة عبر التَّاريخ، ومنها إبادة سكّان «أمريكا» (Dorel, F.2006, p. 5- 6).

وبالنّظـر في اتّفاقية 1948، فـإنَّ مصطلحَ الإبـادة الجماعية، هو الأكثرُ اسـتخدامًا وتداولاً للحديث عن مذبحة الشّـعوب الأولى في أمريـكا (Bellier, I. 2021, p. 2- 3). وقد تمَّ تعريفُ الإبادة الجماعيّة من قبل منظمة الأمم المتحدة في 9 ديسمبر 1948 المُتعلّقة بمنع جريمة الإبادة الجماعيّة والمُعاقبة عليها، على أنَّها جريمةٌ تُرتكب بقصد التّدمير كليّاً أو جزئيًا لمجموعة قوميّة أو إثنيّة أو عرقيّة أو دينيّة (Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 15- 16)، وهو التّعريف المُعتمد في القرن 20م، والذي يُؤكِّدُ ويقرُّ ويعترف بحقيقة الإبادة في حقِّ السّكَّان الأصليّين لأمريكا.

لقد قـامَ التوسُّـع الأوروبي بالأمريكيّتين على مُمارسـات عنيفة مُتعدّدة مـن حيث طبيعتها وأشـكالها، إذ تراوحت مسـتويات العنف والقوة من أبسـط أشـكالها (العنف اللّفظي والإهانة والشـتم والثلب واللّكم...إلخ)، إلى أقصى حالتها (التّشـويه والتنكيل والتعذيب..إلخ.)، إلى درجة أنَّ الإفراطَ في ممارسـة القوة، كان المُبررَ الأساسي لإبراز تفوّق المستعمرين الأوروبيين. فالرَّغبة في ترويض «الآخر» دفع إلى إتقان لغة السّكَّان المحلّيين، ممَّا ساهم في توطّد العلاقات شـيئًا فشـيئًا، وتطوّرت المُعاملات تدريجيّا بينهما، وأصبحت المُقايضة تتـمُّ بعيدًا عن الحذر،

وتحوَّلت إلى مُعاملات تجاريّة (Turgeon, L. 2019, p. 9).. وعليه تحوَّلت هذه الاستراتيجية الاستعماريّة من الاستطلاع والتبادل البسيط للبضائع إلى رغبة في التوطّن والهيمنة والاستحواذ.

وبذلك، فإنَّ عقيدةَ الاستعمار الفرنسي – مثلاً- كانت قائمةً على الخداع الواضح منذ الاتّصالات الأولى، إذ إنَّ الاتفاقيات المُبرمة والتّحالفات لم تكن سوى ذريعة للهيمنة ومدخلاً لبسط النّفوذ على أراضي الإينو واستعبادهم. ولم يكن الوضعُ بأحسن حالاً مع المُستوطنين الإنجليز (Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p. 53)، إذ استمرَّ اغتصابُ الأراضي وانتهاك حقوق السّكّان الأصليّين وفرض سيادةٍ مُطلقةٍ عليهم (Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p. 53).

وغالبًا ما يتمُّ اللجوءُ إلى تبريرات واهية، تعدُّ أنَّ مَا ارتُكب في حقِّ السّكّان الأصليّين رغم أشكال المذبحة الذي بلغته، لم ترتقِ إلى مستوى الإبادة الجماعيّة، ذلك أنّها لم تؤدِّ إلى القضاء النّهائي على تلك المجموعات، بل تندرجُ تلك الممارسات والأفعال في إطار تغيير عادات السّكّان وتهيئتهم لتنمية الأراضي واستغلالها، وهو ما ينفي نيّةَ ارتكاب المذابح بما يتجاوز حتّى مفهوم جرائم الحرب. لقد روَّجَ هذه الفكرة عددٌ من المُؤرّخين، مُعتبرين أنَّ الحربَ وسيلةٌ من وسائل الإخضاع، وليس للإبادة، لأنَّ الاختفاءَ المُطلق للسكان يمُثّلُ عائقاً اقتصاديًا يحولُ دون عمليّة استغلال الأراضي المُصادرة. ولذلك فقد عمدَ تشارلز الخامس الذي سمحَ في البداية باستعباد السّكّان الأصليّين سنة 1517، إلى منع هذه الممارسة سنة 1526، حتّى يكونوا أحرارًا ويُشكّلون يداً عاملةً طيّعةً. وكذلك الشّأن بالنّسبة إلى البابا بولس الثالث الذي أدان في مناسبتين متتاليين سنة 1537 استعباد السّكّان الأصليّين وأكّد حقّهم في الحريّة والملكيّة. لكنّ عدم التمسُّك بهذا الموقف والإصرار عليه وعدم الالتزام بالنّصوص الرّسميّة على مرِّ التّاريخ، لم يكن سوى أداةً لتبرير استغلال سكّان «أمريكا» وتهجيرهم، ممَّا يكشفُ ازدواجيّة السّياسة الاستعماريّة، ويُؤكّدُ ضلوعَ الاستعمار الأوروبي المباشر في التّخطيط لإبادة سكّان «أبيا يالا».

ففي أمريكا الشماليّة وإلى حدود نهاية القرن 15م وبداية القرن 19م، كانت إنجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفي إطار تبرير حركات التوسُّع الأوروبي، تُروِّج إلى نظرة مُفادها أنَّ السّكّان الأصليّين هم رمز للشّرور، وذلك لدحض فكرة الاستيعاب، علاوة على أنّ الأوروبيين في نيو أنجلد (Nouvelle-Angleterre)، لم يكونوا في حاجة ماسّة – إلَّا في حالات نادرة- إلى استعباد السّكّان الأصليّين، بل كانوا يُريدون إجلاءهم للإشراف على الأراضي المصادرة واستغلالها

بصفــة مبــاشرة (Dorel, F.2006, p. 2). في المقابل، تُثيرُ الشّــهادات حول السّــكّان الأصليّين لأمريــكا في القرنين 16م و17م، جدلاً كبيراً حول عمليّات النّهــب والانتهاك والتّهجير والتّفقير والاستعباد والاضطهاد العرقي والثّقافي (Dorel, F.2006, p. 2) دون أن تُقدّمَ تفاصيل عن فظاعة وقسوة وعنف هذه الممارسات، وخاصّة عن الإبادة الجماعيّة.

وفي إطار سحب المشروعيَّة للاستعمار الأوروبي، يُجيزُ جون قيناس دي سوبولفيدا (Ginés de Sepúlveda)، مُؤرِّخ الإمبراطور تشارلز الخامس في كتابه «أسباب الحرب العادلة» (1543) اســتعباد ســكّان أمريكا وتحويلهم إلى الدّيانة المســيحيّة مُشــيراً إلى أنَّ: «(...) هؤلاء الرِّجال الصِّغار، هم بشر مُتواضعون للغاية، يفتقدون إلى العلوم والفنون، وليس لهم أيُّ نُصب تذكاري ســوى بعض اللّوحات ذات الاســتحضارات غير الدّقيقة، ليس لهم قوانين مكتوبة، بل عادات وتقاليد همجيّة وبربريّة فقط، حتَّى أنَّهم يجهلون حقوق الملكيّة» (Bellier, I.2021, p.2- 3)، ولا يُنظر إليهم على أنّهم بشر، بل فصيلٌ من «بهائم» (De Las Casas, B. 1983, p.52) ومتوحّشون يجبُ القضاء عليهم. وعليه، يبقى بارتولومي دي لاس كاســاس من بين الشهادات النادرة التي تكشــف هذه الإبادة الجماعية بأدقّ تفاصيلها في كتابه: «سردٌ مُختصرٌ جدًا لتدمير جزر الهند»، الــذي نُشر عام 1543، حيث يُندِّدُ بظلم هذا الاســتعمار، من خلال تســليط الضّوء على قســوة مُمارسات وأفعال الغزاة الأوروبيين تجاه سكّان «أمريكا» الأوائل[1].

ويستمرُّ هذا التّعتيمُ عن حقيقة التوسُّع الاستيطاني بأمريكا فيما أفاد به مارك ليسكاربوت (Marc Lescarbot) المُحامي في البرلمان الفرنسي، والذي رافق شامبلان في رحلاته الأولى إلى كندا، إذ تجاهل في كتابه «تاريخ فرنسا الجديدة» (1609) الفظائع المرتكبة، واقتصر على وصف المُبادلات البسيطة والسّلميّة بين الفرنسيّين والسّكّان الأصليّين، مُعتبراً أنّ ذلك مثّل الوسيلة المُفضّلة للتّبادل والتّواصل والتّعارف وتقييم الآخر والانجذاب إليه، لكن باتّجاه واحد محوره الأوروبيّ-المتحضّر.

---

1 - كاتب إسباني (1470-1556)، شغل منصب كاهن في كوبا سنة 1512 وأسقف في المكسيك سنة 1543. اهتم «بالهنود» وأسس لهم مستعمرة زراعية. ألّف هذا الكتاب للإمبراطور تشارلز الخامس، والذي دافع فيه دي لاس كاســاس عن «الهنود»، ضد سوء المعاملة، ونَدَّدَ بالمذابح التي ارتكبها المستعمرون الإسبان. يعود تاريخ رواية دي لاس كاســاس إلى عام 1541، أي بعد 49 عامًا من «اكتشــاف» كريســتوفر كولومبوس لجزر الهند وتأسيس الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية في «أمريكا».

ولئن عُدَّت هذه المبادلات التّجاريّة قد أثّرت في السّلوكات والممارسات المتولّدة عنها وحدّدت الطّبيعة النّفعيّة بالنّسبة إلى الطّرفين (Turgeon, L. 2019, p.10)، فإنّها نظرة لا تخلو من مغالطة تاريخيّة طغت على مواقف وآراء غُلاة الاستعمار لإضفاء الطّابع الإنساني السّلمي على هذا التوسُّع.

ولنا أن نستجلي حقيقةً، وهو أنَّ الاستعمارَ الأوروبيَّ كان مهوُوساً بامتلاك الذّهب وتضخيم الثّروة في وقت قصير بالاعتماد على عدّة استراتيجيّات: الاحتيال والمكر والخداع، من خلال التخفّي وراء المقايضة كوسيلة للاتّصال والتّبادل، ونسج العلاقات الوديّة وإبرام المعاهدات التجاريّة لسرقة أملاك السّكّان الأصليّين بطريقة أفضل. ولتحقيق ذلك، لجأ الغُزاة منذ بداية التوسُّع في «أمريكا» إلى ارتكاب مختلف الممارسات العنيفة والمُهينة للسكّان الأصليّين الذين كانوا يتعرَّضون إلى الجلد بالسّوْط والضّرب بالعصيّ واللّكم والشّتم... (De Las Casas, B. 1983, p.64).

ثمَّ تطوَّرت درجةُ العنف وأصبحت هذه المُمارسات أكثر حدّة وشرورًا وآثامًا ودمارًا وخرابًا (De Las Casas, B. 1983, p.46) ليس من قبل الإسبان فقط، ولكن أيضًا من قبل الفرنسيّين والإنجليز، الذين ارتكبوا شتّى أنواع السّرقة والنّهب والمجازر (De Las Casas, B. 1983, p.53).

وقد أدَانَ دي لاس كاساس هذه الممارسات اللاإنسانيّة، مُشيراً إلى فظاعة الطّرق المُعتمدة للقيام بهذه الأفعال: «إنّهم يمُزّقونهم إربًا، ويقتُلونهم ويقْلُونَهُم ويُؤْذُونَهم ويعذّبُونهم ويُدمّرونهم بقَسوةٍ غريبةٍ ومُتنوّعة وغير معهودة لم يسبق لها مثيل من قبْلُ (...)» (De Las Casas, B. 1983, p.50). وهذه الصّورُ الدّمويّةُ يُلخِّصها دافيد استنارد في إطار الحديث عن تداعيات الغزو وأشكال العنف، حيث يُؤكّدُ أنَّ المشهدَ كان: «مُخيفًا أن نَراهم يُقْلُونَ في النّار وتيّارات الدّم تطفئ نفسها، وكانت الرّائحة الكريهة فظيعةً (...). لكنّ النّصرَ بدَا ذَبيحةً حُلوةً». (Stannard, D.1993, p.114).

كما يحدث أن تتّخذَ هذه الفظائع أشكالاً أخرى، مثل الإقدام على حرق الأسرى أحياءً أو يتمُّ شواؤهم على النَّار، وهو تعذيبٌ وتنكيلٌ يتمُّ ببطءٍ للتلذّذ بمشاهدة هذه الصّور الدّموية وآلام الأشخاص. وقد تصلُ هذه الفظائع إلى حدٍّ يُنذرُ بالخطر بالاستمتاع بتعذيب رئيس قبيلة، الذي « تمَّ ربطه (...) وأشعلوا النّار تحت قدميه حتَّى خرج نخاعه من باطن قدميه (De Las Casas, B. 1983, pp.54-55)، إضافة إلى استعمال الكلاب المُروَّضة في عمليات التّنكيل والتّعذيب وتدريبهم على تمزيق أجسام الأشخاص في أسرع وقت (De Las Casas, B. 1983, pp.55 -56). وفي السّياق نفسه يواصل دي لاس كاساس إبرازَ أنَّ التّعذيبَ اتّخذَ أشكالاً مُتنوّعةً، وأنَّ ما أورده لا يمُثّلُ سوى

جزءٍ مـن الألف ممَّا رآه وعايَنَـهُ (De Las Casas, B. 1983, p.61). ثم يؤكد: «لقد قتلوا وأحرقُوا وشـوَوْا وألقوا النّاس إلى الكلاب الشّرسـة» (De Las Casas, B. 1983, p.64)، وأُجبر السّـكَّان عـلى العمل القسري (Dorel, F.2015, p.3)، مُضيفًا: «هاجموا القرية وأضرموا النّار في المنازل، وأحرقوا الأطفالَ والنّسـاءَ والعديدَ من الرّجال أحياءً قبل أن يعودوا إلى رشدهم. كما تمَّ استخدام المكر والحيلة لحرق 300 شخصاً من قبيلة كزاراغوَا (Xaragua) في منزل من القشّ، والباقون قُتلوا بالرّماح وآخرون بالسّـيوف» (De Las Casas, B. 1983, p.60). لقد قتلوا من أرادوا وعذَّبوا حتّى الموت من أخذوهم أحياءً لجعلهم يشـيرون إلى قرى أُخرى ومناطق أخرى بها الذّهب (...)، أمَّا أولئك الذين بقَوْا أحياءً فيَسِـمُون عليهم بمَيْسَم من حديد شارة الرقّ» (De Las Casas, B. 1983, p.71)، في حين أصبحَ آخرون خَدَمًا بين سنة 1514 و1522 (De Las Casas, B. 1983, p.60).

كما عانـت قبائلُ الغـواراني (Guarani) والتوبينامبا (Tupinamba) بأمريـكا الجنوبيّة من ويـلات الغزو البرتغالي، الذي أتىَ عـلى تدمير وإحراق الآلاف من القـرى إلى درجة ترى فيها الجُثث مُتناثرة على طول الشواطئ، تحت مُبرِّر الانتقام من المقاومة التي أبداها السّكَّان الأصليين (Grondin, M. Viezzer, M. 2022, pp.15- 16). وكذلك قام المسـتوطنون الفرنسـيّون سنة 1665 في إطار إخضاع قبائل الأيروكوا (Iroquois)، بتوجيه حملات عسـكريّة واجتياح أراضي منطقة «الموهوك» (Mohawk) وإحراق القرى والمحاصيل. وتواصلت هذه الاعتداءات العنيفة وعمليات التّنكيل بالسّكَّان في ثمانينيات القرن 17 (1680) (Beaulieu, A. 1997, p.42).

وهـذه الممارسـات التدميريّـة، لم تكن تهدفُ إلى إحكام السـيطرة على أكـثر ما يمكن من المجالات الشّاسعة التي كانت مناطق جذب وإغراء بالنّسبة إلى القوى الاستعماريّة المُتنافسة، بل إلى محو الوجود البشري بهذه المناطق.

كما أشـارَ بعضُ المؤرِّخين إلى تعدُّد وتنوُّع الاسـتراتيجيات المُعتمدة في المجازر المُرتكبة من قبل المستعمرين الأوروبيّين، فبعد أن أوْهَمَ المستوطنون بعض السّكَّان بدعوتهم إلى وليمة، قاموا بذبحهم، «شكرًا لله الذي أعانهم على القضاء على المُتوحِّشين» (Kutlu, O. 2021). كما وصلت هذه الفظائع إلى حدِّ مُباغتة السّكَّان ليلاً وأسرهم وحرق القرية بأكملها، ولم يسلم منها سوى 5 أفراد تمَّ سلخُ فروة رؤوسهم بعد القبض عليهم (Baddeley, S. 2011).

كما شـملت هذه المُمارسات أيضًا اختطاف النّسـاء والأطفال، ما بين 70 و80 فتاة وامرأة (De

وعزلهم عن عائلاتهم والاعتداء عليهن بالضّرب واللّكم (Las Casas, B. 1983, pp.54- 55) والاغتصاب، ونزع أحشاء النّساء والفتيات الصغيرات، ولم يتركوا أحدًا على قيد الحياة ولم يسلم أحدٌ من شرور أفعالهم[1]. (De Las Casas, B. 1983, pp.72- 73). وكما شملت هذه الممارسات الوحشيّة زعماءَ القبائل، و«وصل تهوُّرهم ووقاحتهم إلى درجة أنَّ قبطانًا مسيحيّا اغتصب زوجة كبير زعماء القبائل بالجزيرة». وكان المستعمرون الإسبان يتفنّنون في أعمال القتل والتعذيب، إذ بلغت مُمارسات العنف ذروتها « في القرى ولم يتركوا أطفالاً ولا شيوخًا ولا نساءً حوامل لم ينزعوا أحشاءهم ويمزّقوها إربًا، كما لو كانوا يُهاجمون الحِملان». كما أصبحوا يتسلَّوْن في التّنكيل بالأشخاص: «لقد راهنوا على من سيقطع الرّجل بسكّين، واختطفوا الأطفال الرضّع من أمّهاتهم وأمسكوهم من أقدامهم وضربوا رؤوسهم بالصّخور وألقوا بآخرين في الأنهار (...) وصنعوا مشنقة طويلة، حيث تكاد الأقدام تُلامس الأرض في مجموعاتٍ من ثلاثة عشر لتبجيل وتكريم المولى والرّسل الإثني عشر، وأشعلوا النّارَ فيهم فأحرقوهم أحياءً. وقام آخرون بربط أجسادهم بالكامل بالقشّ الجافّ وإشعال النّار فيها، وهكذا أحرقوهم. أمَّا من أراد النّجاةَ بحياته فقد تمَّ تقطيعُ أيديهم وهم أحياءٌ» (De Las Casas, B. 1983, p.55)، وتمزيق البعض الآخر إلى أشلاء، والقبض على من حاول الهرب من هذه المذابح وتحويلهم إلى عبيد (De Las Casas, B. 1983, p.64).

ويُصوِّرُ روسال تورنتون ردودَ الفعل على فظاعة التّنكيل بالسّكّان الأصليّين، بعد أن تحوَّلوا إلى غرباء في أراضيهم مُهدّدين في وجودهم والموت المحتوم يُهدّدهم: « أنا مجروح، ومِن قبل مَنْ، مِن قِبل البيض أنفسهم الذين كنت اعتبرهم، وأعاملهم دائمًا كإخوة، لا أخشى الموت يا أصدقائي. أنت تعرف ذلك، ولكن أن أموت ووجهي مُشوَّه، حتى الذئاب سوف ترتدُّ برعبٍ عند رؤيتي (...). استمع جيدًا إلى ما يجب أن أقوله، لأنها ستكون المرة الأخيرة التي تسمعني فيها» (Thornton, R. 1987, p.99). ومن هنا أصبح «الهنود» يُفكِّرون في طرد المسيحيّين من أراضيهم» (De Las Casas, B. 1983, pp.54 - 55)، وعندها قام البعضُ من الأهالي بمطاردة الغزاة ومحاولة البحث عن زوجاتهم وبناتهم وحماية ذويهم، (De Las Casas, B. 1983, pp.72- 73). لكن يُقرُّ دي لاس كاساس، أنَّ ردودَ الفعل على هذه الفظائع نادرةٌ لأنَّها تُؤدِّي إلى أفظع منها، لأنَّ قتل مسيحيٍّ واحدٍ

---

1 - بالنسبة إلى بعض القبائل، يُعدُّ قتلُ «إيرا» (Ira) (الاسم الذي يُطلقُ على النساء لدى بعض القبائل)، علامة على القسوة والوحشية البغيضة بين الرِّجال، نظرًا إلى مكانة المرأة/الأمّ في هذه المجتمعات.

يترتّب عنه قتل مائة شخص من السّكّان[1] (De Las Casas, B. 1983, p.56).

لقد أدَّت المذابحُ والمجازرُ التي قام بها الغُزاة الإسبان إلى فرار السّكّان ولجوئهم نحو الشّمال والجنوب (De Las Casas, B. 1983, p.71) ونحو شـواهق الجبال والغابات الكثيفة خوفًا من البطش والظّلم المُسـلّط عليهم. لكن المؤكّد أنَّ عنفَ هذه الأفعال وقسـاوتها، أدَّت في النّهاية إلى تجريدهم من أراضيهم وجميع ثرواتهم: «وهكذا أخذ المسيحيّون من (الهنود) الأراضي التي كانـت لهم والممتلكات التـي كانت تدعمهـم» (De Las Casas, B. 1983, p.76). لقد قامت استراتيجيّة الغُزاة الإسبان على شنِّ حروبٍ قاسيةٍ ودمويّةٍ ضدّ السّكّان الأصليّين، ممَّا سمحَ لهم باستعمار الجزر وتنصيب أنفسهم أسياداً عليها ومالكين لها (De Las Casas, B. 1983, p.52)، فقد كانوا أوّل من اسـتوطن جزيرة اسبانيولا (Hispaniola) بعد تصفية الجزء الأكبر من سكانها وإجلائهم ضمن اسـتراتيجيّة قائمة على التّدمير ثمّ التّهجير (De Las Casas, B. 1983, p.54). كما شـهدت نيكاراغوا (Nicaragua) المصيرَ نفسـه من الدَّمار والقتل والاسـتعباد النّاجم عن التوحّش الأوروبيِّ (De Las Casas, B. 1983, p.74).

ثم كان يُعمدُ إلى عزل النّساء والفتيات والأطفال وتقسيمهم إلى مجموعاتٍ على المستوطنين واسـتخدامهم كعبيـدٍ في الحقـول. في حين كان يتمُّ إرسـالُ الرّجال للعمـل في مناجم الفضّة بالمكسـيك والأرجنتـين والذّهب بالبيرو، إذ كان «يُقيّد العمال بالسّلاسـل في أعناقهم حتّى لا يتركـوا الأحمال الثقيلـة التي على ظهورهم. وقـد يُضطرُّ إلى قطع أعناقهـم في حالة التّعب أو الإصابة أو السّـقوط بسـبب الجوع والإجهاد والضّعـف والمرض، حتّى لا يتكلّفـوا عناءَ فكِّ قيودهم» (De Las Casas, B. 1983, p.75) ومارسـوا ضدّهم كُلَّ أسـاليب الازدراء والتّجويع، فكانوا يُقدِّمون لهم الأعشاب تشبيهًا لهم بالحيوانات، ويحرموهم من الأكل حتّى يجفَّ الحليب في أثداء النّسـاء اللاتي ما كنّ يَلِدْنَ حتّى يموت الأطفال بسرعة بسبب الإهمال، وأحيانًا تضطرُّ

1 - لا نُبالغ إذا اعتبرنا التَّشابُهَ الكبيرَ بين ما حدثَ من إبادة «بأمريكا» وما يحدثُ من إبادة بقطاع غزَّة إثر انطلاق «طوفـان الأقصى» في 7 أكتوبر 2023، إذ تجلَّـت الرَّغبة الانتقاميَّة الصّهيونيّة في تصفية (إلى حدِّ يوم 18 جانفي 2024) ما ينوف عن 30 ألف قتيل فلسطيني وأكثر من 60 ألف جريح بغزّة انتقامًا لفقدان 1400 إسرائيلي. سؤالنا هل ستتوقّفُ آلةُ الحرب الانتقاميّة الصّهيونيّة عندما يبلغ عدد القتلى الفلسطينيّين 140 ألف بترتيبات الغُزاة الإسبان بأمريكا اللاتينيّة في القرن 16م (قتيل واحد من الغُزاة مقابل 100 قتيل من السكان الأصليّين)؟

المرأةُ إلى قتل طفلها لتأكلهُ بسبب الجوع (De Las Casas, B. 1983, p.76).

كما أُخضع النُّسوة العاملات في المزارع، والرِّجال في المناجم إلى السُّخرة، بعد أن تمَّ تقييدهم بالقوة وإرغامهم على العمل، وكانوا يموتون من الإرهاق والجوع، في حين يُقتلُ كُلُّ من يحاول الفرار (De Las Casas, B. 1983, p.62). وبذلك فَقَدَ المحلّيون حرّيتهم، وأصبحوا يعانون أشدَّ أنواع القمع والعبوديَّة وأكثرها قسوة، ممَّا خلَّف آلاف الضّحايا وتهجير وإخلاء التجمُّعات السّكّانيّة والاستحواذ على أراضيهم وممتلكاتهم، بحيث لم يبقَ أيُّ أثرٍ أو علامةٍ على وجود سكّان في هذه المناطق. (De Las Casas, B. 1983, p.73)

نستنتجُ إذن، أنَّ السّياسة القمعيّةَ التي توخّتها كُلٌّ من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا، لا تختلفُ في أساليبها وفي غاياتها التّدميريّة، رغم أنَّ عدداً من المؤرّخين يعدُّون أنَّ الاستعمارَ الإسباني أكثر وحشيّةً، والاستعمارُ الفرنسي أكثر ليناً من الاستعمار الإنجليزي (Delâge, D.2002, pp. 1343- 1344). وفي حقيقة الأمر نقفُ على انتهاج استراتيجيّة التّخريب والتّعذيب والحرق والسّرقة والاستعباد والقتل نفسها في كُلٍّ من الأمريكيّتين.

وهكذا قامَ الأوروبيُّون بإبادة الشّعوبِ الأصليَّة بالأمريكيّتين منذ بداية القرن 16م وصولاً إلى القرن 18م، بدعم من دُوَلهم، متّخذين الدّين غطاءً لهم. ولذلك فقد مثَّلَ المُقدّس مطيّة لهذا العنف الشّديد، والدَّافع الأساسي لارتكاب الفظائع والمجازر، ومُبرراً «أخلاقيًّا» لسياسة التعسُّف والقتل والتَّنكيل.

لقد تأسَّست الإبادةُ والتَّطهيرُ العرقي (Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216) للسكّان الأوائل لأمريكا في المنظور الأوروبيّ على منطق الاستعلاء والتفوُّق الحضاري والثَّقافي والعرقي مُقارنة بالأجناس الأخرى. وهذا التّصنيف يكشفُ الجانبَ العدائي في شخصيّة الغازي الأوروبي وتجذُّرُ النّزعةُ الإقصائيّةُ (El Kenz, D. 2005) في سلوكاته ومُعاملاته. ووفقًا لهذا التصوُّر تجرَّد الأوروبيّين من كُلِّ الضّوابط الأخلاقيّة والإنسانيّة للقيام بهذه الممارسات الانتقاميّة والوحشيَّة التي أخذت أشكالاً مُختلفةً من التَّعذيب والتَّنكيل، مسَّت الإنسانَ في كينونته (الذبح والحرق وتقطيع الأعضاء والسلخ وانتزاع الأحشاء والتّجويع...إلخ)، وانتهكت الأرضَ (تدمير القرى وحرقها وسلب الأراضي وتقسيمها وتكوين مُستعمرات لاستيعاب المُهاجرين الجُدد...إلخ)، ودمَّرت الطّبيعة (تدمير أساليب الحياة عن طريق الاستغلال المُفرط، للثروات الطبيعيَّة الحيوانيَّة والبحريَّة والمنجميّة..إلخ). وحُوصرت الثقافة (التغريب التّهجين والمحو والدَّمج في الثَّقافة

الأوروبيَّة). وبذلك أدَّت هذه المُمارسات اللاإنسانيّة إلى الإبادة الجماعيّة المُمنهجة لسكان «أبيا يالا»، وإلى طمسِ هويَّتهم الثّقافيّة والحضاريّة التي لازالت من المواضيع المسكوت عنها.

III. نتائج الإبادة: بين المرويّ والمسكوت عنه

1 - النتائج الدِّيمغرافيّة

اختلفت التقديراتُ لعدد السّكَّان الأصليين للأمريكيّتين خلال الفترة الحديثة إلى حدٍّ التّضارب، إذ يُقدِّرُ كُلٌّ من «فريديريك دورال» و«ريجيس دوبراي»، أنَّ العددَ الإجمالي لسكان «أمريكا» قبل الغزو (1492) بحوالي 100 مليون نسمة(Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56). في حين يذهبُ كُلٌّ من «بوركولدر» و«جونسون» (Burkholder and Johnson) إلى أنَّ العددَ يتراوحُ بين 35 مليون 45 مليون نسمة (بْرَيَر، 2004، ص410)، بينما يُقدِّرُ «ريكارد» (Richard) أنَ العددَ لا يتجاوز 20 مليون نسمة و«هوربون»(Hurborn)، يُحدِّدُهُ بـ 15 مليون نسمة (بْرَيَر، 2004، ص410). ويذهب كُلٌّ من مارسال قرندان (Marcel Grondin) وموميا فيزار (Moema Viezzer) أنَّهُ تمَّت إبادةُ 18 مليون نسمة قبل القرن 17م من سكان أمريكا الشماليَّة. (Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216).

وتُؤكِّد دراسةُ هذه المجموعة من الأمثلة عن الإبادة، تباين الأرقام وتذبذبها. فعلى سبيل المثال؛ قُدِّرَ عددُ سكّان «جزيرة هيسيانيولا» (Hispaniola) مع وصول كريستوف كولومبس سنة 1492 بحوالي 300 ألف نسمة، - وهو رقمٌ ضخمٌ مُقارنة بما أورده بقية المُؤرخين- ثمَّ بدأ هذا العددُ في الانخفاض الحادِّ ليصلَ إلى 50 ألف نسمة سنة 1510، ثمّ تقلَّصَ إلى 16 ألف نسمة سنة 1530، ولم يبق إلاَّ 1000 نسمة سنة 1540.

(Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56)

أمَّا المثال الثاني فيتعلّقُ بأمريكا الشَّماليَّة، فإنَّ عددَ السّكَّان حسب تقديرات كُلٍّ من جيمس موني «James Mooney» وهنري ف. دوبينز «Henry F. Dobyns»، قد انخفضَ من 7 ملايين نسمة قبل الغزو الأوروبيّ إلى 375000 نسمة سنة 1900، أي بنسبة انخفاضٍ حادٍّ قُدِّرَ بحوالي 94% (Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56).

ويُرجِعُ العديدُ من المؤرِّخين هذا الانهيارَ الدّيمغرافي، إلى المذابح التي ارتكبها المستوطنون

الأوروبيُّون، وإلى الإبادة المُمنهجة للجنس البشري على امتداد خمسة قرون، والتي ذهب ضحيتها ما يقارب 100 مليون من السّكّان الأصليّين في النّصف الغربي من الكرة الأرضيَّة، حسب تقديرات المؤرِّخ الأمريكي ديفيد ستانارد (David Stannard) في كتابه «المحرقة الأمريكيَّة: كريستوفر كولومبس وغزو العالم الجديد».

ووفقاً لما ذكره، عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي راسل تورتنون (Russell Thornton) في كتابه «الهولوكوست وبقاء الهنود الأمريكيين: تاريخ السّكّان منذ سنة 1492»، أدَّت الحروبُ إلى إبادة حوالي 12 مليون من السّكّان، بين سنة 1492-1900 (Kutlu, O. 2021 ; Thornton, R. Vol. 186, 1990, pp. 51- 56).

وتبقى الإبادةُ حقيقةً تاريخيَّة، لا يمكن إنكارها - رغم اختلاف التقديرات-، إذ إنَّ الأوروبيين تسبَّبوا في القضاء على أغلب السّكّان الأصليّين للأمريكيّتيْن، حيث إنَّ الخسائرَ البشريَّةَ المُترتبة عن الغزو الأوروبيّ خلال الفترة الحديثة تُعدُّ مُهمَّة، فحسب مارسال قراندان تصلُ إلى ما بين 90% و95% من الضحايا الذين تمَّت إبادتهم والقضاء عليهم إثر الحروب الوحشيَّة، وعمليات القتل العشوائي ومناهج التَّنكيل والاستعباد والتَّجويع، واستراتيجيَّات التّهجير القسري وآليَّات النَّهب وطرق الاستغلال الفاحش والتّفقير، (Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p.216)، وهذا ما يُؤكِّدُهُ جون كريستوف تمداوي (Jean Christophe Temdaoui)، من أنَّهُ لم يتبق من السّكّان المحلّيين سوى 5% (Temdaoui, J.C., 2017, pp.10- 11).

تُعدُّ هذه التقديرات مُقتضبةً ومُتضاربةً حول تحديد نسبة الإبادة السّكّانيَّة بالأمريكيّتين، لكن رغمَ ذلك، يبقى كتابُ دي لاس كاساس، أهمَّ المصادر التي تمُيطُ اللّثام عن عدد الضّحايا لكُلِّ قبيلة، دون أن يكشفَ لنا عن المصدر الذي استقى منه هذه المُعطيات. ومع ذلك فهي تظلُّ من بين الشَّهادات النادرة عن هذه الإبادة الجماعيَّة في القرن السادس عشر. حيث يُقدِّرُ أنَّ عددَ الضحايا قد تجاوزَ 12 مليون رجل وامرأة وطفل في جزر الأنتيل (Les Antilles)، وتمَّ تقريبًا القضاء على سكان جزيرة كوبا (L'île de Cuba) بالكامل، في فترة لا تتجاوز تقريبًا 50 سنة (De Las Casas, B. 1983, p.49).

وبحسب دي لاس كاساس، مات أكثر من سبعة آلاف طفل في هذه الجزيرة (De Las Casas, B. 1983, p.67)، إضافة إلى القضاء على أربعين ألف شخص (De Las Casas, B. 1983,

p.70). وهكـذا دمّر المسـيحيون الجزيرة بأكملها وأخلوا سـكانها (De Las Casas, B. 1983, p.68). كما أشـار إلى أنّه لم يتبقّ من سـكّان جزيرتي سـان خـوان (San Juan) وجامايكا (La Jamaïque)، سوى عدد قليل لا يتجاوز 200 شخص في كلّ منهما، بعد أنْ كان العدد الإجمالي للسكّان بهما يتراوح بين 600 ألف ومليون نسمة (De Las Casas, B. 1983, p.70).

كذلك الشّـأن، بالنّسبة إلى المقاطعات التابعة إلى نيكاراغوا، التي أُبيد بها أكثر من 800 ألف شخص على أيدي الإسـبان. وتواصلت عملياتُ الإبادة والاسـتئصال لما تبقَّ من السّكَّان إلى حدود سنة 1553 (De Las Casas, B. 1983, p.72).

وتذهبُ أغلبُ الدّراسـات التَّاريخيّة، إلى أنَّ وحشيّةَ الإنسان الغربي وممارساته الفظيعة، لم تكن السَّـببَ الوحيدَ في الانهيار الدّيمغرافي لسـكان أمريكا، بل تتبنَّى الطَّـرحَ الذي يقول: إنَّ تفشّي الأمراض السّـارية مثل الطّاعون والجدري (بْرَيَـر، 2004، ص102)، والأوبئة الوافدة مع الأوروبيّين، كانت سببًا في تسريع نسق الانهيار الحادّ لعدد سُكَّان «أمريكا» الأوائل، (Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216). وهو ما أكَّدهُ دي لاس كاسـاس، مُعترفًا أنَّ وحشيّةَ الوافدين لم تكن العاملَ الوحيدَ المُفسِّر للإبادة، بل يذهبُ إلى اعتبار أنَّ «الهنودَ يموتون بسـهولةٍ شديدةٍ بسبب أيِّ نوعٍ من الأمراض» (De Las Casas, B. 1983, p.49)، فقد سهَّلت الحملات التوسعيّة «الاتّصال الجسدي والفيروسي»، ويرى «أنَّ الاختلاطَ بين السّكَّان الذين يتردّدون على الإسبان في أثنـاء عملهم في المنزل يُصابون بأمراضٍ شـتَّى مجهولة لديهم، ولا تحُول مناعتهم الطّبيعيّة دون مُقاومتها وانتشارها، على غرار الأنفلونزا والحصبة والجدري والزهري...» (De Las Casas, B. 1983, p.49)، وهو موقفٌ يتعارضُ مع ما أفاد به في وصفه لمظاهر التعذيب والتنكيل.

في المقابل، يُؤكِّدُ هذه الفكرة جملةٌ من المُؤرِّخين، وعدُّوها المُحدِّدَ الوحيدَ المُفسِّرَ للكارثة الدّيمغرافية التي عاشها سكان «أمريكا»، وأكدوا أنَّ «الظّروفَ التي سهَّلت من آثار الأوبئة المُروِّعة التي جاء بها الأوروبيّون والأفارقة. (...) تلك الأوبئة الجديدة، التي لم يكن السّكَّان المحلّيون مُحصَّنين ضدها، أدَّت، أكثر من أيِّ سببٍ، إلى نِسَبٍ فلكيّةٍ في الوفيات (...) وكان وباء الجدري والحصبة مصدر القتل الأساس» (بْرَيَر، 2004، ص102-103).

لقد أظهرت بعض الأبحاثُ، أنَّ وصولَ جملة الأمراض المذكورة، كانت وراءَ اختفاء مُجتمعات بأكملها خلال بضع سـنوات، إضافة إلى انتشـار الجراثيم على البضائـع المُتاجر بها (الأدوات

والأواني الزجاجيّة)، وعلى الحيوانات (الأبقار والخنازير والدّواجن)، وكذلك على الطّفيليّات. ففرضيّة الصّدمة البكتروبيولوجية المتأتّية من أوروبًّا، كان تأثيرها مباشرًا على السّكَّان المحلّيين الفاقدين للمناعة ضدَّها (Dorel, F.2015, p.4)، من ذلك مرض الجدري في بلاد الإنكا (1525)، والتيفـوس في المكسـيك (1546) (Dorel, F.2015, p.3)، و كذلك الأنفلونزا (1558-1559)، والحصبة في المكسيك (1530)، والنّكاف والخُناق منذ أكتوبر1492. وجميعها عُدَّ من العوامل الرَّئيسـة « في اختفـاء ملايين الأفراد الذين لم يفهموا الوضع الجديـد، واعتقدوا خذلان آلهتهم التقليديَّة، الأمرُ الذي سهَّلَ تسليمهم إلى عمل المُبشِّرين» (Dorel, F.2015, p.4).

وإمعانًا في هذا التوجُّه، عُدَّ رجلُ الدِّين الإسباني «فراي توريبيو» أنَّ ما أصابهم، إنَّما هو ابتلاءُ الله بسـبب «وثنية السّكَّان المحلّيين» (بْرَيَر، 2004، ص 97)، ولدرء هذه الخطايا والآثام وجب تنصيرهـم وتعميدهم. غير أنَّ عددًا من المُؤرِّخين يجزم أنَّ عمليّةَ التّهجير القسْري للسـكّان إثر الحروب التي خاضها الأوروبيُّون ضدَّهم وظروف العمل القاسـية والتّجويع (بْرَيَر، 2004، ص 82)، والسُّخرة التعسُّفيّة وما تبِعَها من مجاعة وسوء التّغذية والكوارث الطّبيعيَّة، التي كانت تقضي على المحاصيل بأكملها (بْرَيَـر، 2004، ص102)، و«الضّرر النّفسي» هي التي أثَّرت وأضعفت «من عزيمة السّكَّان في العيش والتناسل» (بْرَيَر، 2004، ص102-103).

2 - النتائج الثّقافيّة

كان من تداعيات الحركة التوسُّعيّة للاستعمار الأوروبيّ خلال القرنين 16م و17م «بأمريكا»، القضـاء عـلى ثقافـة «المتُوحِّـش»(Hirsch, S. Moisan, S. p.14)، وهو التوصيف الشّـائع والمُتداول الذي يُطلقُ على السّكَّان الأصليّين، تحقيرًا لهم ولثقافتهم «البدائيّة» و«التقليديّة»، كما يُجرِّدهم من صفة الإنسانيّة وينزلهم منزلة الحيوان، الذي يحتاج إلى التّرويض والتّدريب، لذلك قامت الحركاتُ الاسـتيطانيّةُ الأوروبيّة على منهج يهدفُ لطمس الخصوصيّة الثقافة والمرجعيّة الحضاريّة للسكان الأصليّين من جهة، وفرض الثقافة الأوروبيّة «المتُفوِّقة» وترويجها بين السّكَّان الأصليّين من جهة ثانية، ودفعهم إلى اعتناق الدّيانة المسيحيّة (Hirsch, S. Moisan, S. p.5).

هذه النّظرةُ تعدُّ الأوروبي محور الحضارة الإنسانيّة، وتُحقِّرُ وتزْدَري في المقابل ثقافة الآخر، مُتجاهلـة بذلك الثقافات والحضـارات ما قبـل الكولومبيّة المتطوّرة لقبائـل الأُولمك والمايا

وتُلتك وأزْتيك والإنكَا (بْرَيَر، 2004، ص 82). إذاً، وبدافع الهيمنة وتثبيت فكرة مركزية الحضارة الأوروبيّة وتفوُّقها، مُقارنة بحضارة «أبيا يالا»، قام المُبشِّرون ورجال الدّين أساسًا بدعمٍ من الكنيسة الكاثوليكيّة بالدَّور الأساسي في عمليّات التّهجين التعسُّفيّة والاستيعاب القسري للسكّان الأصليّين في صلب الثقافة والحضارة الأوروبيّة.

بالنسبة إلى الأوروبيين الذين استقرُّوا في «العالم الجديد»، أصبحَ من الضروري لهذه الأمم أن تتخلّى عن حالتها البدائية (الحالة الطبيعة)، لتُحقِّقَ التقدُّمَ في مستوى العادات ونمط العيش والمعرفة والأفكار، بغرس القيم وأساليب الحياة الأوروبية فيهم، من أجل إخراجهم من حالتهم «الوحشية» و«البربرية»، وذلك عن طريق: انتهاج سياسة تُفضي إلى تغيير المُعتقدات الدّينيّة، أو باعتماد العزل والفصل والاستيعاب عن طريق التعليم أو المُؤسَّسات التعليميّة، كوسيلةٍ لاحتواء السّكَّان وإخضاعهم اجتماعيًّا وثقافيًّا، وفي هذا السِّياق اضطلعت البعثاتُ البروتستانتية والكاثوليكية، التي نظَّمتها الإمبراطوريّات الاستعماريّة بالتّزامن مع البعثات العسكريَّة، بالدّور البارز في دمج السّكَّان الأصليّين في الثقافة الأوروبيَّة(Leforestier, C. 2012, p.38). وقد تمّت الاستفادة من جهود المبشّرين لتدمير ثقافة السّكَّان الأصليّين ومحوها من ذاكرة الشعوب الأصليّة.

ففي المُستعمرات الكنديَّة وأمريكا الشَّماليَّة، عمل التُّجَّارُ والمُبشِّرون الفرنسيُّون على نسج علاقات قائمة على التّحالف والتّبادل التّجاري مع السّكَّان الأصليّين، ممَّا مهَّدَ الطّريقَ إلى اعتناق الكثير منهم الدّيانة المسيحيَّة، عن طريق البعثات التبشيريّة المُتعدّدة التي تُنظِّمها الكنيسة، والتي كان يُشرفُ على إدارتها المُبشِّرون في المحميّات للتشجيع على اعتناق الدّين المسيحي والتعرُّف على الثقافة الأوروبيّة.

وهذا النشاط نجدُ لهُ صدىً أيضًا في المُستعمرات الإنجليزيّة، التي كُرست فيها الجهود على إضفاء الطابع الثقافي (Jaenen, C.J. 2007). لقد تأسَّسَ العملُ لنشر نمط العيش والثقافة الفرنسيّة على نظرة دونيّة تحطُّ من منزلة الثقافة المحليّة، وعلى اعتبار أراضي السّكَّان الأصليّين، أراضي مُتوحّشين يغيبُ فيها التنظيم السياسي والهرمي والعائلي (Temdaoui, J.C., 2017, p.4). وهذه النّظرة كانت تُجيزُ لهم القيام بفعل التحضُّر والتّثقيف دون مُراعاةٍ للاختلاف الحضاري الثقافي.

كما قامت عملياتُ الاستيعاب، عن طريق آليَّة تدمير البيئة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والدّينيّة، بالعمل على استبدال المرجعيّة الأصليّة للسكان بالمرجعيَّة الأوروبيَّة، لا سيّما عن طريق التّبشير والتّنصير عن طريق اتّباع نظام المحميّات، الذي يضع السّكَّان الأصليّين تحت سلطة ورقابة

مُؤسَّسات دينيّة أو لائكيّة، خاصّة ممَّن اضطرَّ إلى الالتحاق بهذه المراكز بعد أن فقد أراضيه وأملاكه، ممَّا أدَّى تدريجيّاً إلى فقدان الخصوصيّة الثقافيّة واللغويّة، وهذا النّظام مثّل شكلا من أشكال الاندماج القسري في «أمريكا» الشّماليّة(Dorel, F.2015, p.9).

لقد كانت عمليّات الاختراق الثقافي قويّة بالنّظر إلى تنامي حضور العنصر الأوروبي بهذه المجالات، وهو ما أدَّى تدريجيًّا إلى تدعيم ثقافة المُستعمر وهيمنتها على حساب الثقافة الأصليَّة للسكَّان الأصليّين. فلم يكن الأمرُ هنَا، يتعلّق بغزو الأرض والهيمنة على مجالات شاسعة فقط، بل بغزو الذّاكرة الثقافيّة (Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p.52)، وتفكيك ثقافة هذه الشّعوب تمهيدًا للاستيعاب والدَّمج الثقافي.

ومن أهمِّ أساليب الهيمنة والسيّطرة، محو الذَّاكرة وتغييب الشواهد والعلامات والمُميِّزات والصور الثقافيّة من ذاكرة المُجتمع الأصلي، وهو ما يُفسِّرُ الآثارَ المأساويَّةَ النّاتجةَ عن الغزو الثقافي الأوروبيّ للشعوب الأصليّة. فالاستيلاءُ على الأراضي ارتبطَ إلى حدٍّ كبيرٍ بدوافع ثقافيّةٍ- دينيّةٍ، مُعتبرين أنَّها أراضي مُشاعة وغير مأهولة. ووفقاً لهذا المبدأ، فإنَّهُ يجب أن تخضعَ للمسيحيّين (Samson, J.C. Vol. 5, 2008)، ممَّا يُبيِّنُ أنَّ العنفَ الذي لحق بالأرض، سيمتدُّ تأثيرهُ إلى السّكّان وإلى ثقافتهم. فلم يكن التملُّكُ والامتلاكُ سوى تمهيدًا لعمليات الاستيعاب ومُبرِّرًا للهيمنة الثقافيَّة على السّكَّان. وهي سياسةٌ أشبهُ ما تكون بعمليّة اجتثاثٍ من الأرض، ومحوٍ للإرث الثقافي والحضاري.

خاتمة

لئن أفضت حركاتُ التوسُّع الأوروبيِّ إلى الانتهاك والتّنكيل والقتل والحرمان ومصادرة الأراضي، فإنَّ هذه الممارسات، لم تكن سوى وجهاً من وجوه الإبادة الجماعيَّة المُمنهجة، بل مهَّدت الطّريق إلى الهيمنة والإخضاع الكلّي والقسري، وإلى الإدماج والاستيعاب الثقافي والحضاري للسكّان الأصليّين. ويمكن مُعاينةُ آثار هذه الممارسات اليوم، في صعوبة تأسيسِ معرفةٍ حقيقيّةٍ لتاريخ وحضارة سكّان «أبيا يالا» الذي وقع تغييبه وتجاهله على مرِّ التَّاريخ، بل والانتقال به من التّهميش إلى النّسيان، ولم يبق منه سوى ما اختمرَ في الأذهان عن تاريخٍ دمويٍّ خلّدته الذّاكرة الإنسانيَّة في الرِّوايات المُتداولة.

لقد اعتمد منهجُ الإبادة العرقيّة الثقافية لسـكّان «أبيا يالا»، على المنبع السياسي والإيديولوجي نفسه، وهو مرجعيّةٌ استعماريّةٌ، يمكن أن تُقرأَ في مُختلف السيِّاقات والأحداث التَّاريخيّة، على أنَّها «جريمة إنسانيّة»، رغم أنَّ العديدَ من الدِّراسات والأبحاث المُتحمِّسة والمُناصرة للعقيدة الاستعماريَّة لازالت إلى اليوم تُبرِّرُ الغزوَ والقتلَ باسم الحضارة والتمدُّن، ومُقاومة الوحشيّة والبربريّة.

ولا شكَّ أنَّ هذا الانحيازَ والتّعتيم، يفتحُ جدلاً تاريخيًّا وبحثيًّاً حول حقيقة الجرائم والفظائع التي ارتكبها المُستوطنون، منذ السّنوات الأولى من الغزو والتّوسُّع «بأمريكا»، ومن ثمّ الكشف عن التَّاريخ الدّموي للاستعمار الأوروبي الذي لا زال إلى اليوم، يتنصَّلُ من المسؤوليّة التَّاريخيّة والتّدميريّة لمجتمعات وحضارات عريقة.

ولا يخفى في هذا السِّـياق مُخلّفات التدخُّل العسـكري الاستعماريّ واسـع النّطاق في العراق وأفغانسـتان، وغيرهما من الدُّول، والانحياز إلى تبرير عمليّات القتل والتّدمير العشـوائيّ والإبادة الجماعيّة للفلسطينيّين. أليس هذا تاريخ الدّول الأوروبيّة، التي تتفاخرُ بقيم الحرّية والعدالة وحقّ الشّـعوب في تقرير مصيرها، أليس هـذا التّواطؤ يجعل الهيمنةَ والاسـتعبادَ والاسـتغلالَ والظلمَ والانتهاكَ وخرق المُعاهدات والاتفاقيات، سمة مُميّزة للتاريخ الاستعماري، الذي يجعل الإدانة دون مُستوى الإبادة والجرائم المُرتكبة ضدّ الإنسانيّة. أليس هذا ما يجعل القوانين والتشريعات الدوليّة تصمتُ في هكذا مسائل، مثل الحقوق والحرّيات وحماية الأعراق والدّيانات والثقافات المُختلفة!؟

إنَّ الإبادةَ في مضمونها، إباداتٌ مُتنوّعةُ الأشـكال ومُتزامنة الأوقات ومُتراصَّة الغايات، تعمَدُ كُلُّهـا إلى الإيذاء المادّي والمعنوي- الرَّمزي لمجموعاتٍ بشريّـةٍ أحالتها الظُّروف إلى هوامش التَّاريخ والمجال. غير أنَّها لا تمُحى من الذّاكرة الجماعيَّة للشّعوب المعنيّة، مهما حالت آليَّات «المُتفوِّق-المُبيد» وأدواته إلى رميها طيّ النّسيان.

وفي هذا الإطار، لنا أن نتساءلَ، لماذا أغلبيّة شعوب ودول أمريكا اللاّتينيّة تدعمُ الحقَّ الفلسطينيَّ في تقريـر المصير، وتُطالبُ بوقف العدوان في غزّة، والذي ارتقى إلى مُسـتوى الإبادة الجماعيّة. هل يعود ذلك إلى مُجرَّد وعي النُّخب والقيادات السياسـيّة التقدُّميّـة ببوليفيا وفنزويلا وكولومبيا والبيرو والشيلي وغيرها؟ أم لاستبطان شعوب تلك القارّة للمجازر المُقترفة ضدَّ الفلسطينيّين كتلك المجازر والإبادة الجماعيَّة التي تعرَّضت لها أثناء الغزو والتوسُّع الأوروبيّ في القرنين 16م و17م؟

المراجـــــع والمصادر

المراجع باللّغة العربية:

■ بْرَيَر، م. (2004)، الكتاب المقُدَّس والاستعمار الاستيطاني: أمريكا اللاتينية، جنوب إفريقيا، فلسطين، ترجمة أحمد الجمل وزياد منى، ط.2، قُدْمُس للنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا.

المراجع باللُّغة الأجنبيّة:

■ BADDELEY, S. (2011). « Le récit de l'île du Massacre Jacques Cartier, Discours du voyage fait par le capitaine Jacques Cartier (15341545-) », La Clé des Langues Lyon, Ens de Lyon/Dgesco (ISSN 21077029-), Consulté le 222024/01/. URL: https://cle.ens-lyon.fr/anglais/litterature/litterature-britannique/le-recit-de-voyage-a-l-epreuve-des-langues-le-cas-des-recits-de-voyage-de-jacques-cartier-15341545--

■ BEAULIEU, A. (1997). Les autochtones du Québec: des premières alliances aux revendications contemporaines, Coperation musée de la civilisation, Editions Fides, Québec.

■ BELLIER, I. (2021). « Les peuples autochtones face au génocide, à l'ethnocide, à l'écocide », 17. p. URL : https://gitpa.org/web/Bellier%20Genocides.pdf.

■ BOQUEHO, v. (2020). « XVIe-XVIIe siècle : Espagnols et Portugais à la conquête de l'Amérique», in hérodote.net, URL : https://www.herodote.net/Espagnols_et_Portugais_a_la_conquete_de_l_Amerique-synthese-488.php , mis en ligne le 092020/05/.

■ CARTIER, J. (1598). Discours du voyage fait par le capitaine Jacques Cartier aux terre-neufves de Canadas, Norembergue, Hochelage Labrador et pays adiacens, dite nouvelle France, avec particulieres mœurs, langage et ceremonies

des habitans d'icelle, ed., de l'imprimerie de Raphaël du Petit Val, Librairie& imprimeur du roy, à l'Ange de Raphaël, Rouen.

■ CLASTRES, P. (2002). « Ethnocide », in Encyclopaedia Universalis, vol.8, Paris, pp. 888890-.

CORNELIUS, J. (2007). « Relation entre les autochtones et les français », in, Encyclopédie Canadienne, URL : https://www.thecanadianencyclopedia.ca/fr/article/relations-entre-les-autochtones-et-francais

■ DE LAS CASAS, B. (1983). Très brève relation de la destruction des Indiens, ed., La Découverte/ Maspero, Paris.

■ DEBRAY, R. (1991). Christophe Colomb, le visiteur de l'aube. Paris, La Différence.

■ DOREL, F. (2015). « La thèse du «génocide indien»: guerre de position entre science et mémoire», in Amnis, (13p.), URL: https://www.researchgate.net/publication/28219750

■ El Kenz, D. (2005). Le massacre, objet d'histoire. Paris, Gallimard, coll. Folio histoire, 557 p.

■ GARRAIT-BOURRIER, A. (2015). « Du génocide « éprouvé » à l'ethnocide affirmé », Témoigner. Entre histoire et mémoire, n°120, pp.122136-. URL : https://doi.org/10.4000/temoigner.2185

■ GRONDIN, M. VIEZZER, M. (2022). Le génocide des Amériques : Résistance et survivance des peuples autochtones, Traduction du portugais (Brésil) par Yves Carrier, avec la collaboration de Raymond Levac, Préfaces de Ailton Krenak, Jacques B. Gélinas, Les Éditions Écosociété, Quebec, pp. 1516-.

■ Hirsch, S. Moisan, S. « Le génocide des premiers peuples au canada », 31p. Étudier les Génocides, URL : https://oraprdnt.uqtr.uquebec.ca/pls/public/docs/

GSC1022/O0004063090_01_04_A_Genocide_des_Premiers_peuples_FRA.pdf

■ JUNCOSA, F. (1987). « ABYA-YALA: Una edictorail para los indios », in Chasqui, n°23, pp.3942-.

■ Kutlu, O. (2021). « États-Unis: une Histoire à l'enseigne des massacres et des génocides», Traduit de l'Anglais par Mourad Belhaj, URL: www.aa.com.tr/fr/monde/états-unis-une-histoire-à-l-enseigne-des-massacres-et-des-génocides/226198

■ Kutlu, O. (1987). « États-Unis: une Histoire à l'enseigne des massacres et des génocides » , Thornton, R. American Indian Holocaust and Survival: A Population History since 1492, Vol. 186 of Civilization of the American Indian series, University of Oklahoma Press, Social Science, 292 p.

■ LEBRUN, F. (1999). L'Europe et le monde XVIe, XVIIe, XVIIIe siècle, Ed., Armand Colin, 4ème Ed., Paris.

■ Leforestier, C. (2012). L'assimilation des indiens d'Amérique du Nord par l'éducation: une étude comparative, Education, Université Michel de Montaigne, Bordeaux III, 2012. Français. 477p., NNT: 2012BOR30005. URL: https://theses.hal.science/tel-00730946/document

■ LEGRAND, O. (2013). « Le mystère de Roanoke: un supplément pour le jeu de rôle SOLOMON KANE », Inspiré de l'œuvre de Robert E. Howard, 14 p. URL : http.//solomonkane.free.fr/ROANOKE.pdf

■ ROSS-TREMBLAY, P. HAMIDI, N. (2013). « Les écueils de l'extinction Les Premiers peuples, les négociations territoriales et l'esquisse d'une ère postcoloniale», la revue Recherches Amérindiennes au Québec, XLIII, n° 1, pp. 5157-.

■ SAMSON, C. (2008). « The Rule of Terra Nullius and the Impotence of International Human Rights for Indigenous Peoples », in Essex Humane Rights

Review, vol.5, n°1, Huly, pp.112-, URL : https://repository.essex.ac.uk/17961//terra_nullius_ehhr_2008.pdf

■ STANNARD, D. (1993). American Holocaust, Columbus and the Conquest of the New World, Oxford University Press.

■ Temdaoui, J.C., (2017). « L'Amérique du Nord française (XVIIe-XVIIIe siècle)», in Licence. Hal Open Science, France, 12p. URL: https://shs.hal.science/halshs-03090644/document.

■ Thomazi, A.(1947). Histoire de la navigation, Collection «Que sais-je ?», Ed. p.U.F., Paris, 128 p.

■ Thornton, R. (1987). American Indian Holocaust and Survival. A Population History since 1492, Norman, University of Oklahoma Press.

■ TURGEON (Laurier), (2019). Une histoire de la Nouvelle-France : Français et Amérindiens au XVIIe siècle, Ed, Belin, Paris.

■ Yacoubi, R.(2012). La marginalité féminine à Aix-en-Provence au temps de Louis XIV, Thèse de doctorat en histoire moderne occidentale, Sous la direction de Hassen El Annabi, 2 Tomes, Faculté des Silences Humaines et Sociales de Tunis, Tunis.